أَلإِحْكامُ في اسْتِعْمَالِ المُفْرَدَةِ في النَّصِّ القُرْآنِيِّ

دِرَاسَةٌ لُغوِيَّـــةٌ في الآيةِ الأولى مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ

د. ميثم مهدي صالح الحمامي
كلية التربية الأساسية - جامعة الكوفة

فحوى البحث

هذا البحث يُعنى بالكشف عن أسرار التعبير القرآني من خلال الاستدلالات التطبيقية على النص القرآني في محاولة للوصول إلى غايتين الأولى بيان الجانب الإعجازي في القرآن الكريم والأخرى التحقيق في بعض النظريات التي نجدها في تراثنا.

يُعني البحث بشكل تطبيقي بهذا النص المعجز لتوضيح حقيقة أن النص القرآني دقيق الدلالة وواضح الغاية وبالإمكان الوصول إلى مراد النص بمقدار ما نمتلك من إمكانات لغوية وذهنية إذ يمكننا النص من معناه بشكل مستقل يغني عن أن نقصد غيره للوقوف على مراده وقد قصر الباحث الحديث في الآية الأولى من سورة النساء المباركة، وختمها باهم النتائج التي تمخض عنها البحث.

التمهيد:

«في غرض السورة» و « المفردة القرآنية»:

في غرض السورة

يهدف البحث من عرض غرض السورة إلى إظهار براعة النص في تحقيقه للغرض بأمثل صورة وأبهى طريقة وبيان كيفية توظيف الإمكانات كافة خدمة للمعنى، وتبيين الترابط الدقيق بين آيات السورة المباركة، وإظهار الوحدة الموضوعية للسورة، وقد ذهب الطباطبائي في الميزان إلى أن الغرض من السورة «بيان أحكام الزواج كعدد الزوجات ومحرمات النكاح وغير ذلك، وأحكام المواريث، وفيها أمور أخرى من أحكام الصلاة و الجهاد والشهادات والتجارة وغيرها، وتعرض لحال أهل الكتاب. ومضامين آياتها تشهد أنها مدنية نزلت بعد الهجرة، وظاهرها أنها نزلت نجوما لا دفعة واحدة وإن كانت أغلب آياتها غير فاقدة للارتباط فيما بينها»[1]. ويبدو أن ما ذكره صاحب الميزان هو بيان لما تضمنته السورة، وإلا كيف يفهم الترابط بين آيات السورة المباركة في النص السابق؟.

إذن لابد من وجود غرض يوحد مضامين السورة لتظهر البراعة في تسلسل المضامين وعرضها بالصورة التي عليها النص المقدس، ويبدو أن الغرض الجامع لكل آيات هذه السورة هو تكوين المجتمع الإنساني القويم وبناء حكومة إسلامية بعد أن أُسِّست نواة ذلك المجتمع وتلك الحكومة، ولعل هذا الغرض هو الجامع للسور المدنية بحسب ما يقوله أصحاب كتب علوم القرآن عند حديثهم عن المكي والمدني من سور القرآن الكريم[2]، ولهذا يقول صاحب تفسير الأمثل في حديثه عن سورة النساء: «هذه السّورة- كما قلنا -نزلت في المدينة، بمعنى أنّ النّبي الأكرمﷺ عندما كان مقبلا

(١) الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي، ٤/ ١٣٤.

(٢) ينظر: علوم القرآن: السيد محمد باقر الحكيم: ٧، ٩٥، وعلوم القرآن الكريم: الدكتور غانم قدوري حمد، ١٠٢، التعبير الفني في القرآن الكريم: الدكتور بكري شيخ أمين، ٤٦.

على تأسيس حكومة إسلامية وتكوين مجتمع إنساني قويم، نزلت هذه السورة وهي تحمل جملة من القوانين التي لها أثر كبير في إصلاح المجتمع، وإيجاد البيئة الاجتماعية الصالحة النقية. ومن ناحية أخرى فإنّ أكثر أفراد هذا المجتمع الجديد كانوا قبل ذلك من الوثنيين بما فيهم من لوثات الجاهلية وانحرافاتها ورواسبها، لذلك يتعين قبل أي شيء تطهير عقولهم، وتزكية أرواحهم ونفوسهم من تلك الرّواسب، وإحلال القوانين والبرامج اللازمة لإعادة بناء المجتمع محل تلك العادات والتقاليد الجاهلية الفاسدة»[٣].

ولهذا فإننا نفهم مدى الارتباط بين الآيات المباركة لسورة النساء وبين الغرض الذي يجمعها، فبالإيمان بالرب وتقواه، والتفكير في عظمته في إيجاد الوجود ما يهيِّئ النفوس لطاعة الالتزام بتعاليم السماء والسير بهداها، وبالعناية باليتامى وإعطاء حقوقهم، وبالالتزام بالقوانين المتعلقة بالزّواج والبرامج التي تصون العفاف العام والقوانين العامّة لحفظ الأموال العامّة، وحفظ حالة الأسرة وتحسينها، والتمسك بالحقوق والواجبات الفردية المتقابلة في المجتمع، كل ذلك يؤدي إلى بناء مجتمع قويم ومتماسك تسوده المحبة والإخاء، ويعيش أبناؤه أحبة متكاتفين، ويبتعد المجتمع عن الجريمة، ويكون محصنا عن الأمراض الاجتماعية التي تعصف بالمجتمعات وتودي بها إلى حظيرة الهلاك. يقول سيد قطب: « من هذا الافتتاح القوي المؤثر، ومن هذه الحقائق الفطرية البسيطة، ومن هذا الأصل الأساسي الكبير، يأخذ في إقامة الأسس التي ينهض عليها نظام المجتمع وحياته: من التكافل في الأسرة والجماعة، والرعاية لحقوق الضعاف فيها، والصيانة لحق المرأة وكرامتها، والمحافظة على أموال الجماعة في عمومها، وتوزيع الميراث على الورثة بنظام يكفل العدل للأفراد والصلاح للمجتمع...»[٤].

(٣) تفسير الأمثل: مكارم الشيرازي، ٣/ ٧٦.

(٤) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٢/ ٤١.

لقد خاطب الله في هذا النص الناس ولم يخصَّ المؤمنين منهم أو المسلمين إذ قال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [سورة النساء: ١]، لأن المجتمع لا يتكون من المسلمين أو المؤمنين فحسب، فحتى لو كان الخطاب موجها إلى المجتمع الإسلامي في عهد النبي الأعظم ﷺ فإن المسلمين ليسوا كل المجتمع، فهناك غيرهم من اليهود وغير المسلمين، وكلهم أفراد مجتمع واحد، ويؤثرون فيه إيجابا وسلبا، فلا بد من العناية بهم جميعا، والقرآن هنا يؤسس لمبدأ احترام حقوق الأقليات في المجتمعات التعددية وإن اختلفت عقائدهم وتوجهاتهم، لأنهم مجتمعون في مصير واحد وهو الوطن، ولعل هذا ما يفسر لنا استعمال لفظة (رَبَّكُمُ) في الآية المباركة وعدم استعمال غيرها، يقول صاحب تفسير الميزان في هذه الآية: «يريد دعوتهم إلى تقوى ربهم في أمر أنفسهم وهم ناس متحدون في الحقيقة الإنسانية من غير اختلاف فيها بين الرجل منهم و المرأة و الصغير و الكبير و العاجز و القوي حتى لا يجحف الرجل منهم بالمرأة و لا يظلم كبيرهم الصغير في مجتمعهم الذي هداهم الله إليه لتتميم سعادتهم و الأحكام و القوانين المعمولة بينهم التي ألهمهم إياها لتسهيل طريق حياتهم، و حفظ وجودهم و بقائهم فرادى ومجتمعين. ومن هناك تظهر نكتة توجيه الخطاب إلى الناس دون المؤمنين خاصة و كذا تعليق التقوى بربهم دون أن يقال: اتقوا الله و نحوه فإن الوصف الذي ذكروا به أعني قوله: الذي خلقكم من نفس واحدة «إلخ» يعم جميع الناس من غير أن يختص بالمؤمنين، و هو من أوصاف الربوبية التي تتكفل أمر التدبير و التكميل لا من شؤون الإلوهية»[٥]. وفي هذه الصلة براعة استهلال مناسبة لما اشتملت عليه السورة من الأغراض الأصلية، فكانت بمنزلة الديباجة، كما يقول صاحب

(٥) الميزان في تفسير القرآن، ٤/ ٢.

تفسير التحرير والتنوير، وقال أيضا: «وعبّر بـ (ربّكم)، دون الاسم العلم، لأنّ في معنى الربّ ما يبعث العباد على الحرص في الإيمان بوحدانيته، إذ الربّ هو المالك الذي يربّ مملوكه أي: يدبّر شؤونه، وليتأتّى بذكر لفظ (الربّ) طريق الإضافة الدالّة على أنّهم محقوقون بتقواه حقّ التقوى، والدالّة على أنّ بين الربّ والمخاطبين صلة تعدّ إضاعتها حماقة وضلالاً»(٦). وبهذا يكون القرآن العظيم أول من أسس إلى نظرية علم الخطاب التي تغنى بها المحدثون من العلماء.

وشبه هذا الخطاب ما جاء في سورة الحج إذ قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ﴾ [سورة الحج: ١]، وقد جعل سبحانه هذا المطلع مطلعا لسورتين في القرآن: إحداهما: سورة النساء وهي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن. والثانية: سورة الحج، وهي أيضا السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن، وقد سخر سبحانه الخطاب في سورة النساء ليدلل على معرفة المبدأ، وفي سورة الحج ليدلل على معرفة المعاد «فجعل صدر هاتين السورتين دلالة على معرفة المبدأ ومعرفة المعاد، ثم قدم السورة الدالة على المبدأ على السورة الدالة على المعاد، وتحت هذا البحث أسرار كثيرة»(٧).

ويبدو أن لتسمية هذه السورة سرا يتعلق بالذي تقدم ذكره من غرض السورة، فبالرغم من أن لفظة النساء قد تكررت عشر مرات في السورة، فان لهذه التسمية ما يمكننا من القول بأن القرآن يشير إلى أمر قد أثبتته التجربة البشرية وهي أن المرأة تمثل الأساس الذي ينتج المجتمعات ويضعها في المكان الصواب والفلاح، فمتى ما كانت المرأة ناضجة فكريا، كان هناك مجتمع ناضج سليم تكثر فيه السعادة ويرفل بالأمان والخير، ومتى كان العكس أصبح المجتمع مريضا يشكو التفسخ والانحلال.

(٦) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ٣/ ٣١٣.

(٧) مفاتيح الغيب: الرازي، ٥/ ٣٣.

المفردة القرآنية:

المتدبر للنص القرآني تلفته الاستعمالات الدقيقة للمفردة القرآنية، لاسيما من نال حظا من العربية وفنونها، ورزق صفاء النفس وحسن التدبر، فالتعبير القرآني فريد في علوه وسموه وأنه أعلى كلام وأرفعه[٨]، وقد درس اللغويون القدماء هذا الجانب وأثرت عنهم إشارات بينت دقة الاستعمال القرآني للفظة، واستمر الاهتمام بهذا الجانب عند المهتمين والمعنيين ليصبح منهجا في التفسير القرآني[٩]، ولعل أقدم إشارة إلى ذلك ما ذكره الجاحظ (ت٢٥٥هـ) بقوله: «وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلاّ في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة... ولا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر، وأولى بالاستعمال»[١٠]. وهنا نجد أن الجاحظ قد أكد على ضرورة استعمال اللفظ المناسب لمكانه، مشيرا إلى أن هنالك دلالة دقيقة للمفردة يحددها الاستعمال الأمثل للغة متخذا من الاستعمال القرآني دليلا وحكما، وقد اشترط الخطّابي (ت ٣٣٨) في النص البليغ أن تضع اللفظ في موضعه الأليق ومكانه الأمثل، «الذي إذا أبدل مكان غيره جاء منه إما بإبدال المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه سقوط البلاغة»[١١]. ولعل الاستعمال القرآني كان السبب الأكبر في هذه النظرية اللغوية، فقد ذكر الجرجاني (ت ٤٧١) في رسالته الشافية في وجوه الإعجاز: «اعلم أن لكل نوع من المعنى نوعا من

(٨) ينظر: التعبير القرآني: فاضل السامرائي، ٩.
(٩) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن ١/ ١٧، و دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني: محمد الدوري٢١.
(١٠) البيان والتبيين: الجاحظ ١/ ٢٦.
(١١) بيان إعجاز القرآن: الخطابي، (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ٢٦.

اللفظ هو أخص وأولى، وضروبا من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلى، ومأخذا إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وبالقبول أخلق، وكان السمع له أروى، والنفس إليه أميل»[١٢]، وقال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [سورة لقمان: ٢٧]، "فإن قلتَ: لِمَ قيل: من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر؟. قلت: أريد تفصيل الشجر وتقصيها شجرة شجرة؛ حتى لا تبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا قد بُريت أقلاماً"[١٣]. فقد قصد القرآن الكريم لكل لفظة قصدا مراعيا (جمال وقعها في السمع، اتساقها الكامل مع المعنى، اتساع دلالتها لما لا تتسع له دلالات الكلمات الأخر من المعاني والمدلولات)[١٤].

فلننظر في براعة استعمال المفردة في سورة النساء ولنتدبر براعة التعبير القرآني في استثمار طاقات الأسماء في المبحث الأول: الأسماء، وفي استعمال الأفعال في المبحث الثاني، والحروف في المبحث الثالث.

المبحث الأول: (الأسماء):

من الأسماء التي وردت في السورة المباركة كلمة (النَّاسُ)، في الآية الأولى، وقد مر في البحث سبب اختيارها من ألفاظ استعملها القرآن في خطابه (الذين آمنوا)، أو يا مسلمين أو يا خلق، أو يا أيها الملأ أو (يا أيها المساكين) كخطاب كان معروفا في الكتب السابقة[١٥]، وفوق ما تقدم يجد الباحث انطباقا مع الغرض العام للسورة المباركة وانسجاما مع الجو العام للسورة أن الدلالة المعجمية لهذه المفردة أكثر انطباقا من غيرها هنا، فقد ذكرت المعجمات، أن الإنسان

(١٢) الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز: الجرجاني، ٥٧٥.
(١٣) الكشاف: الزمخشري، ٣/ ٢٣٦.
(١٤) ينظر: نظرات من الإعجاز البياني للقرآن الكريم نظريا وتطبيقا: سامي محمد هاشم، ٧٥.
(١٥) ينظر: مجمع البيان: الطبرسي، ٣/ ٤.

مأخوذ من الأنس (الألفة)[١٦] فقد جاء في الحديث أَن النبي «نهى عن الحُمُر الإِنسيَّة يوم خَيْبَر يعني التي تأْلف البيوت»[١٧]، والناس هم الذين يؤلفون المجتمعات بمؤانسة بعضهم لبعض، وبهذا فإن المعنى يتلاءم مع جو الآية المباركة واللفظة تكون الأنسب من غيرها، يضاف إلى ذلك أنها تنسجم مع ما سيأتي بعدها، من أمر التقوى، وحقيقة الخلق من نفس واحدة، وغير ذلك[١٨].

وقد نقل عن ابن عباس أن خطاب (النَّاسُ) كان خاصا بالعرب، مستدلا بأن المخاطبة بالرحم كانت عادة العرب، وقد فند الرازي هذا الأمر ودلل على أن المقصود بالخطاب عامة الناس[١٩]، والباحث يؤيد ذلك لأن القول به يعطي انفتاحا وسعة للنص تنسجم وكونه خطابا لهداية البشر كافة، وقد ذكر صاحب تفسير البحر المديد أن خطاب (يَا أَيُّهَا النَّاسُ) أي: جميع الخلق[٢٠]، وقد ذهب ابن عاشور إلى أوسع من ذلك إذ قال: إن الخطاب هنا جاء «ليشمل جميع أمّة الدعوة الذين يسمعون القرآن يومئذ وفيما يأتي من الزمان»[٢١]. وهذا الرأي جميل لكونه يعطي انفتاحا للنص زمانا ومكانا، ولهذا نجد بعض المفسرين المحدثين يذهبون إلى هذا، يقول سيد طنطاوي: «افتتحت السورة الكريمة بهذا النداء الشامل لجميع المكلفين من وقت نزولها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وذلك لأن لفظ الناس لا يختص بقبيل دون قبيل، ولا بقوم دون قوم، وقد دخلته الألف واللام المفيدة للاستغراق؛ ولأن ما في مضمون هذا النداء من إنذار وتبشير وأمر بمراقبة الله وخشيته، يتناول جميع المكلفين لا أهل مكة وحدهم كما ذكره بعضهم؛ لأن تخصيص قوله -تعالى- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بأهل مكة تخصيص بغير

(١٦) ينظر: الفروق اللغوية: العسكري، ١/ ٥٢٧ الفرق بين الناس والخلق.
(١٧) لسان العرب: ابن منظور، مادة (أنس).
(١٨) ينظر: مفاتيح الغيب: الرازي، ٥/ ٣٢.
(١٩) ينظر: المصدر السابق.
(٢٠) ينظر: البحر المديد: ابن عجيبة ١/ ٣٧٨.
(٢١) التحرير والتنوير: ابن عاشور ٣/ ٣١٣.

مخصص»[٢٢].

وهكذا نجد جل المفسرين يذهبون إلى أن ما يراد من اللفظة جنس الناس دون قيد أو شرط وذلك ما تؤكده القرائن اللفظية فضلا عن العقلية، فمن هذه القرائن اللفظية (الألف واللام التي هي للجنس، عدم وجود مقيد، ولو أراد النص لقيَّد)، يضاف مطابقة هذا مع ما يأتي في السورة من معان وأحكام وغير ذلك.

(ربكم): نلحظ أن الآية المباركة قد آثرت هذه اللفظة على غيرها كلفظة (إله، خالق، منشئ، بارئ)، ولتفسير ذلك لا ضير من نظرة في المعجم العربي لنتعرف على استعمال العرب لهذه اللفظة، فقد بين صاحب اللسان أنها تدل على التملك فقد جاء «وربُّ كلِّ شيءٍ مالِكُه ومُسْتَحِقُّه وقيل صاحبُه ويقال فلانٌ رَبُّ هذا الشيءِ أَي مِلْكُه له وكُلُّ مَنْ مَلَك شيئاً فهو رَبُّه يقال هو رَبُّ الدابةِ ورَبُّ الدارِ وفلانٌ رَبُّ البيتِ وهُنَّ رَبَّاتُ الحِجالِ ويقال رَبٌّ مُشَدَّد ورَبٌّ مخفَّف»[٢٣] ولذلك فقد ورد عن العرب تسمية الملك بالرب يقول امرؤُ القيس:

فما قاتلُوا عن رَبِّهم ورَبِيبِهم
ولا آذَنُوا جاراً فَيَظْعَنَ سالمَا

وقد جاء القرآن بهذه اللفظة بهذا المعنى، ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [سورة يوسف: ٢٣]، ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [سورة يوسف: ٤٢]، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [سورة يوسف: ٥٠]، ما يدل على أن اللفظة في الاستعمال القرآني قد طابقت الاستعمال اللغوي عند العرب، ويبدو أن اللفظة قد حصل لها تضييق في

(٢٢) التفسير الوسيط: محمد سيد طنطاوي ١/ ٨٣٧.

(٢٣) لسان العرب: ابن منظور، مادة (ربب).

دلالتها، فقد كانت تعني كل من تملَّك، ولكن تخصصت اللفظة بالله عز وجلّ، وهي هنا أنسب لأن المقام مقام التدبر والتكميل لشؤون الخلق، وهذه من صفات الربوبية لا الإلهية ولا غيرها(٢٤)، يضاف إلى ذلك أن استعمال لفظة ربكم في الآية فيه مراعاة لخطاب المجتمع المتعدد في الاعتقاد، فلو خاطبهم فيما يختلفون فيه لفقد الخطاب فئات عديدة في المجتمع، ولأعرض أولئك عن هذا الخطاب كونه لا يعنيهم، مع أن الخطاب كان للجميع كما مر، وليس هذا القول يعني أن النص قد أهمل هنا موضوع الاعتقاد بالله الواحد الأحد، ولكنه جاء به بشكل بليغ وغير مباشر لكي لا يحدث نفورا عند غير المسلمين، فجاء بعد ذلك بالتخصيص الذي يحدد أحقية أن يكون الرب إله الناس، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [سورة النساء: ١]، فإن كان الرب قد خلق الناس من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء فهو الأولى بالربوبية والإلوهية. ولهذا أتبع اللفظة بالوصف ليفيد بها أمورا منها الإشارة إلى أحقية الرب الذي هذه صفته بالتقوى، والإشارة إلى أن هذه الصفة هي ملازمة للموصوف، فلا يكون ربا لهم ما لم يكن خالقا لهم، يقول ابن عاشور: «ثم جاء باسم الموصول (رَبَّكُمُ الَّذِي) للإيماء إلى وجه بناء الخبر لأنّ الذي خلق الإنسان حقيق بأن يُتّقى. ووَصْل (خَلَقَكُمْ) بصلة (مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) إدماج للتنبيه على عجيب هذا الخلق وحقّه بالاعتبار. وفي الآية تلويح للمشركين بأحقّيّة اتباعهم دعوة الإسلام، لأنّ الناس أبناء أب واحد، وهذا الدين يدعو الناس كلّهم إلى متابعته ولم يخصّ أمّة من الأمم أو نسباً من الأنساب، فهو جدير بأن يكون دين جميع البشر، بخلاف بقية الشرائع فهي مصرّحة باختصاصها بأمم معيّنة. وفي الآية تعريض للمشركين بأنّ أولى الناس

(٢٤) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي، ٤/ ١٣٥، وينظر ما جاء في الفروق اللغوية: العسكري ١/ ٢٤٧ الفرق بين صفة الرب وصفة المالك.

بأن يتّبعوه هو محمدﷺ لأنّه من ذوي رحمهم. وفي الآية تمهيد لما سَيُبَيِّنُ في هذه السورة من الأحكام المرتّبة على النسب والقرابة»[٢٥].

لفظة (الذي): اسم موصول، مبهم رغم أنه معرفة، إلا أنه يعرّف بصلته[٢٦]، وهذا الإبهام يتناسب مع ما تقدم من حديث عن رب الناس باختلاف عقائدهم، ولكن السؤال الذي يطرح أن هناك ألفاظا غير (الذي) تكون بمعناها هي (من، ما) فلماذا عدل النص عنها؟. إن المتتبع لمدلولات الألفاظ السابقة في المعجمات العربية يجد أن (من) و (ما) من المشترك اللفظي، فلها استعمالات عدة، وفي مجيئها بمعنى (الذي) قد تدلان على أمور لا تنسجم مع النص، فقد تدلان على المفرد أو المثنى أو المجموع، وهنا إشكال كبير في غير المفرد، لاسيما إذا عدمت القرينة، يضاف أنهما قد يدلان على العاقل وغير العاقل، والأخير فيه إشكال كبير للنص، ويبدو أن هذا الإبهام جعل الوصف في الكلام بـ(الذي) ولم يوصف في الكلام بغيرها، لهذا أُحكم النص باستعمال (الذي) دون اللفظتين[٢٧].

لفظة (نفس): جاء في المعجمات أول معنى للنفس أنها الروح[٢٨]، بيد أن ابن سيده قد ذكر أن بينهما فرقا[٢٩]، والعرب تستعمل لفظة النَّفْس في كلامها على ضربين «أَحدهما قولك خَرَجَتْ نَفْس فلان أَي رُوحُه وفي نفس فلان أَن يفعل كذا وكذا أَي في رُوعِه والضرْبَ الآخر مَعْنى النَّفْس فيه مَعْنى جُمْلَةِ الشيء وحقيقته تقول قتَل فلانٌ نَفْسَه وأَهلك نفسه أَي أَوْقَتَ الإِهْلاك بذاته كلِّها»[٣٠]، وهنا يتضح الفرق

(٢٥) التحرير والتنوير: ابن عاشور ٣/ ٣١٣.
(٢٦) ينظر: لسان العرب: ابن منظور، مادة (لذا).
(٢٧) ينظر: المصدر السابق، مادة (لذا)، (منن)، (ما).
(٢٨) ينظر: مفردات غريب القرآن: الراغب، ١/ ٥٠١ مادة (نفس)، وينظر: المصدر السابق، مادة (نفس).
(٢٩) ينظر: لسان العرب، مادة (نفس).
(٣٠) المصدر السابق، مادة (نفس).

الدلالي للكلمتين إذ إن دلالة النفس في الاستعمال اللغوي عند العرب تعني الروح والروع، وتعني جملة الشيء وحقيقته أيضا، فمن قال بأن النفس هي الروح فقد نظر إلى أحد المعنيين.

وجاء في تفسير النفس في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [سورة الزمر: ٤٢]، ما روي عن ابن عباس أنه قال: «لكل إنسان نَفْسان إحداهما نفس العَقْل الذي يكون به التمييز والأُخرى نَفْس الرُّوح الذي به الحياة»[٣١]، وأضاف الزجاج أن لكل إنسان نَفْسين «إحداهما نَفْس التمييز وهي التي تفارقه إذا نام فلا يعقل بها يتوفاها اللهَّ كما قال اللهَّ تعالى والأُخرى نفس الحياة وإذا زالت زال معها النَّفَسُ والنائم يَتَنَفَّسُ، وهذا الفرق بين تَوَفِّي نَفْس النائم في النوم وتَوفِّي نَفْس الحيّ، ونفس الحياة هي الرُّوح وحركة الإنسان ونُمُوُّه يكون به»[٣٢].

وقد وضح الرازي في مفاتيح الغيب حقيقة النفس الإنسانية عند تفسيره الآية المباركة، فقال: «النفس الإنسانية عبارة عن جوهر مشرق روحاني إذا تعلق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء وهو الحياة، فنقول إنه في وقت الموت ينقطع تعلقه عن ظاهر هذا البدن وعن باطنه وذلك هو الموت، وأما في وقت النوم فإنه ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوؤه عن باطن البدن، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد إلا أن الموت انقطاع تام كامل والنوم انقطاع ناقص من بعض الوجوه، وإذا ثبت هذا ظهر أن القادر العالم الحكيم دبر تعلق جوهر النفس بالبدن على ثلاثة أوجه أحدها: أن يقع ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه وذلك اليقظة وثانيها: أن يرتفع ضوء النفس

(٣١) المصدر السابق، مادة (نفس)، وينظر: التبيان في تفسير القرآن: الطوسي، ٩/ ٢٩، ومجمع البيان: ٨/ ٣٥٨

(٣٢) المصدر السابق، مادة (نفس).

عن ظاهر البدن من بعض الوجوه دون باطنه وذلك هو النوم وثالثها: أن يرتفع ضوء النفس عن البدن بالكلية وهو الموت فثبت أن الموت والنوم يشتركان في كون كل واحد منهما توفياً للنفس، ثم يمتاز أحدهما عن الآخر بخواص معينة في صفات معينة، ومثل هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلا عن القادر العليم الحكيم، وهو المراد من قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الزمر: ٤٢]»(٣٣).

أما الروُح فقد جاء في لسان العرب «في كلام العرب النَّفْخُ سمي رُوحاً لأنه ريحٌ يخرج من الرُّوحِ،... ، والرُّوحُ النَّفْسُ يذكر ويؤنث والجمع الأَرواح... قال أَبو بكر بنُ الأنباري الرُّوحُ والنَّفْسُ واحد غير أَن الروح مذكر والنفس مؤنثة عند العرب وفي التنزيل ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٥]، وتأْويلُ الروح أَنه ما به حياةُ النفْس،...، قال الفراء والرُّوح هو الذي يعيش به الإِنسان لم يخبر الله تعالى به أَحداً من خلقه ولم يُعْطِ عِلْمَه العباد قال وقوله عز وجل ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [سورة الحجر: ٢٩] فهذا الذي نَفَخَه في آدم وفينا لم يُعْطِ علمه أَحداً من عباده قال وسمعت أَبا الهيثم يقول الرُّوحُ إِنما هو النَّفَسُ الذي يتنفسه الإِنسان وهو جارٍ في جميع الجسد فإِذا خرج لم يتنفس بعد خروجه فإِذا تَتامَّ خروجُه بقي بصره شاخصاً نحوه حتى يُغَمَّضَ،...، قال الزجاج جاء في التفسير أَن الرُّوح الوَحْيُ أَو أَمْرُ النبوّة ويُسَمَّى القرآنُ روحاً»(٣٤).

وقد أجمل ابن الأثير معاني الرُّوح التي في الاستعمال القرآني وفي الحديث النبوي الشريف، فـ«الغالب منها أَن المراد بالرُّوح الذي يقوم به الجسدُ وتكون به الحياة وقد أُطلق على القرآن والوحي والرحمة وعلى جبريل في قوله

(٣٣) مفاتيح الغيب: الرازي، ١٣/ ٢٦٧.

(٣٤) لسان العرب: مادة (نفس).

الرُّوحُ الأَمين قال ورُوحُ القُدُس يذكَّر ويؤنث وفي الحديث تحَابُّوا بذكر الله ورُوحِه أَراد ما يحيا به الخلق ويهتدون فيكون حياة لكم وقيل أَراد أَمر النبوَّة وقيل هو القرآن»[٣٥].

ومن الاستعمالات والمعاني التي مرت نجد أن الروح ليست خاصة بابن آدم، فهي أوسع من أن تحصر فيه، أما النفس فهي ألصق بابن آدم، ولذلك وصفت بالخير والشر، والإنشاء والفناء (الموت) والبعث، «وعلى النفس يقع البعث، وعليها يقع الحساب، وعليها يقع الجزاء بالجنة أو النار؛ لأنها صاحبة الكسب، والروح مبرَّأة منه؛ لذا لم تنسب إلى شيء من ذلك»[٣٦]. وهنا نجد أن النص القرآني في الآية الأولى في سورة البقرة قد آثر استعمال لفظة (النفس) على (الروح) لما تقدم، وقد أشار إلى هذا المعنى الطباطبائي في تفسير (النفس) في هذه الآية: «فالنفس على ما يستفاد من اللغة عين الشيء يقال: جاءني فلان نفسه وعينه وإن كان منشأ تعين الكلمتين -النفس والعين -لهذا المعنى ما به الشيء شيئا مختلفا، ونفس الإنسان هو ما به الإنسان إنسانا، وهو مجموع روح الإنسان وجسمه في هذه الحياة الدنيا والروح وحدها في الحياة البرزخية»[٣٧].

لفظة (واحدة): معنى الواحد كما يذكر العسكري ما لا ثاني له، فلا يقال في التثنية واحدان كما يقال رجل ورجلان[٣٨]، وعلة مجيء اللفظة كما يذكر المفسرون «أن المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام، و من زوجها زوجته، و هما أبوا هذا النسل الموجود الذي نحن منه و إليهما ننتهي جميعا»[٣٩]، وعلة ذكر هذه الصفة بهذه الصيغة إنما جاء بيانا لمقدرة الله تعالى في خلق الناس من نفس واحدة وتحقيقا لغرض سامٍ آخر وهو

(٣٥) المصدر السابق، مادة (نفس).
(٣٦) دقائق الفروق اللغوية: الدوري، ١٣٩، ١٤٠.
(٣٧) الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي، ٤/ ١٣٥.
(٣٨) ينظر: الفروق اللغوية: العسكري، ١/ ٥٦٤.
(٣٩) الميزان: ٤/ ١٣٥.

أن البشر متساوون لكونهم من مصدر واحد، وهذا ما يؤكده جل المفسرين عند حديثهم عن هذه الآية، يقول الزمخشري: «فإن قلت: الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويبحث عليها، فكيف كان خلقه إياهم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجباً للتقوى وداعياً إليها؟. قلت: لأنّ ذلك مما يدل على القدرة العظيمة. ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء، ومن المقدورات عقاب العصاة، فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقي القادر عليه ويخشى عقابه، ولأنَّه يدل على النعمة السابغة عليهم، فحقهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها. أو أراد بالتقوى تقوى خاصة وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم، فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله، فقيل: اتقوا ربكم الذي وصل بينكم، حيث جعلكم صنوانا مفرعة من أرومة واحدة. فيما يجب على بعضكم لبعض، فحافظوا عليه ولا تغفلوا عنه»[٤٠]. وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة. وقد نص عليه المفسرون[٤١].

لفظة (الله): يرد في النص أمر التقوى مرة ثانية، ولكن هنا بتقوى الله بهذا اللفظ دون سواه، ترى ما خصوصيته هنا؟. ولماذا استعمل النص المقدس لفظ الجلالة ولم يكتفِ بالضمير؟. يبدو أن المعنى الذي يريده النص لا يتحقق من دون ذكر لفظ الجلالة، وقد ذكر بعض المفسرين علة استعمال النص للفظ الجلالة فقد ذكر الرازي وجوها في علة وجود اللفظ: «الأول: تأكيد الأمر والحث عليه كقولك للرجل: اعجل اعجل فيكون أبلغ من قولك: اعجل، الثاني: أنه أمر بالتقوى في الأول لمكان الإنعام بالخلق وغيره، وفي الثاني أمر بالتقوى لمكان وقوع التساؤل به فيما يلتمس البعض من البعض. الثالث: قال أولا: (اتقوا

(٤٠) الكشاف: الزمخشري ١/ ٣٦٩.

(٤١) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ٢/ ٢٧.

رَبَّكُمُ) وقال ثانيا: (واتقوا الله) والرب لفظ يدل على التربية والإحسان، والإله لفظ يدل على القهر والهيبة، فأمرهم بالتقوى بناء على الترغيب، ثم أعاد الأمر به بناء على الترهيب كما قال: ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [سورة السجدة: ١٦]، وقال: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾[سورة الأنبياء: ٩٠]، كأنه قيل: إنه رباك وأحسن إليك فاتق مخالفته لأنه شديد العقاب عظيم السطوة»[٤٢].

وإلى مثل هذا ذهب أبو السعود في سبب ذكر لفظ الجلالة وتكرار أمر التقوى إذ قال: «تكريرٌ للأمر وتذكيرٌ ببعض آخَرَ من موجبات الامتثالِ به فإن سؤالَ بعضِهم بعضاً بالله تعالى بأن يقولوا أسألُك بالله وأنشُدك اللهَّ على سبيل الاستعطافِ يقتضي الاتقاءَ من مخالفة أوامرِه ونواهيه، وتعليقُ الاتقاءِ بالاسمِ الجليلِ لمزيد التأكيدِ والمبالغةِ في الحملِ على الامتثال بتربية المهابةِ وإدخالِ الروعةِ، ولوقوع التساؤل به لا بغيره من أسمائه تعالى وصفاته»[٤٣].

وقد أشار ابن عاشور إلى أن علة استعمال لفظ الجلالة غايته إدخال الروع في نفوس السامعين قائلا: «واستحضر اسم الله العلم هنا دون ضمير يعود إلى ربّكم لإدخال الرّوع في ضمائر السامعين. لأنّ المقام مقام تشريع يناسبه إيثار المهابة بخلاف مقام قوله: (اتقوا ربكم) فهو مقام ترغيب»[٤٤]. وهي أقوال عجيبة إذ كيف يفهم من لفظ الجلالة الدال على ذات الله سبحانه وتعالى الترهيب دون سواه وهو القائل: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ [سورة الفاتحة: ١]، والقائل: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [سورة الرعد: ٢٨]، وللنظر إلى ما قاله الآلوسي في قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ﴾: «تكرير للأمر الأول وتأكيد له، والمخاطب مَن بعث إليهم ﷺ أيضاً كما مر، وقيل:

(٤٢) مفاتيح الغيب: الرازي، ٥/ ٣٨.

(٤٣) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، ٢/ ٢٨.

(٤٤) التحرير والتنوير: ابن عاشور ٣/ ٣١٥.

المخاطب هنا وهناك هم العرب كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما لأن دأبهم هذا التناشد، وقيل: المخاطب هناك من بعث إليهم مطلقاً وهنا العرب خاصة، وعموم أول الآية لا يمنع خصوص آخرها كالعكس ولا يخفى ما فيه من التفكيك، ووضع الاسم الجليل موضع الضمير للإشارة إلى جميع صفات الكمال ترقياً بعد صفة الربوبية فكأنه قيل: اتقوه لربوبيته وخلقه إياكم خلقاً بديعاً ولكونه مستحقاً لصفات الكمال كلها. وفي تعليق الحكم بما في حيز الصلة إشارة إلى بعض آخر من موجبات الامتثال، فإن قول القائل لصاحبه: أسألك بالله، وأنشدك الله تعالى على سبيل الاستعطاف يقتضي الاتقاء من مخالفة أوامره ونواهيه»[٤٥] وهو تعليل رائع لتكرار أمر التقوى وذكر لفظ الجلالة، إذا بعد أن ذكر النص أن الرب الذي يخلق الناس من نفس واحدة يستحق أن يكون ربا وإلها للناس كرر أمر التقوى لذاته بمسماه كون هذا اللفظ مما اختص بذاته المقدسة.

وقد دأب القرآن على استعمال الألفاظ استعمالا دقيقا، وفي خصوص لفظتي (الله والرب)، نجد أن النص القرآني قد استعملهما في آيات عدة استعمالا كان غاية في البراعة والدقة بالرغم من التقارب التركيبي والدلالي بين الآيات كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: ١٣٧]، فقد ذهب الخطيب الإسكافي إلى أن في الآية الأولى مراعاة لحالة النبي إزاء ما يلقى من مخاطر ومكائد من الإنس والجن، فأراد الخطاب أن يخلق الطمأنينة والأنس

(٤٥) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: الآلوسي، ٣/ ٤٠٢.

للنبي، فاستعمل النص لفظة (ربك) ليشير لهذا المعنى، فهو الذي رباك وقام بمصالحِك وهو القادر على دفع الضر عنك، أما استعمال لفظ الجلالة في الآية الأخرى «فأخبر أنهم أقاموا لله الذي يحق إفراده بالعبادة شريكا، ولو شاء الله، أي: ولو شاء من نعمته عليهم نعمة توجب التأله له أن لا يعبدوا سواه ما تمكنوا من فعله فهذا موضع لم يلق به إلا الاسم الذي يفيد معنى فيه حجة عليهم دون غيره من الأسماء فأفاد كل اسم من الاسمين في مكانه ما لم يكن ليستفاد بغيره، والله أعلم»[٤٦].

وهنا نفهم -ومن خلال نص الإسكافي المتقدم -أن سبب استعمال القرآن في الآية الأولى في سورة النساء لتكرار التقوى بلفظ (الله)، أن معنى ذلك أنه هو المستحق دون سواه لمعنى الربوبية التي توجب تقواه، فقد انتقل النص من آلية الإثبات إلى حتمية التسليم العقلي بحقيقة ربوبيته وإيجاده للوجود، وهو ما يتطلب تقواه في تنفيذ أوامره وتجنب معاصيه والخشية من سخطه. فليس الغرض من تكرار التقوى بلفظ الجلالة (الله) إدخال الروع أو الرهبة في نفوس السامعين، وإنما هو لغرض التعظيم والتحبيب، ولعل تكملة الآية المباركة يعضد ما ذهب إليه البحث، فقوله تعالى في وصف لفظه بـ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [سورة النساء: ١]، وقوله تساءلون به كما يقول المفسرون هو سؤال الناس بعضهم بعضا بالله، يقول السيد الطباطبائي: "المراد بالتساؤل سؤال بعض الناس بعضا بالله، يقول أحدهم لصاحبه: أسألك بالله أن تفعل كذا و كذا هو إقسام به تعالى، و التساؤل بالله كناية عن كونه تعالى معظما عندهم محبوبا لديهم فإن الإنسان إنما يقسم بشيء يعظمه و يحبه"[٤٧]. ولعل الرجوع إلى المعجم خير دليل على ما تقدم إذ قيل أن أصل لفظ الجلالة (الله) من

(٤٦) درة التنزيل: الخطيب الإسكافي، ١٠٩، وينظر علل التعبير القرآني عند السيوطي: طه شداد، ٦٠.

(٤٧) الميزان في تفسير القرآن، ٤/ ١٣٦.

«ولاه، فأبدل من الواو همزة، وتسميته بذلك لكون كل مخلوق والها نحوه؛ إما بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات؛ وإما بالتسخير والإرادة معا كبعض الناس، ومن هذا الوجه قال بعض الحكماء: الله محبوب الأشياء كلها»[٤٨].

فضلا على أن العطف على الأرحام واستعمال النص لصفة الرقيب دون سواها على ما سيمر.

(رقيب) واحدة من صفاته سبحانه وتعالى جاءت في النص لغاية اقتضاها المعنى طبعا، سيحاول البحث بيان علة استعمال النص لها دون سواها من صفات الله، وقد قيل في الرقيب الحافظ كما عن مجاهد وقيل العالم كما عن ابن زيد[٤٩] وقال الخطابي هو الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء[٥٠]، ويرى الطبرسي أن المعنيين الأولين متقاربان، ويبدو أن الطبرسي نظر إلى أن الحافظ للعباد لابد أن يكون عالما بأحوالهم، وقد جاء في لسان العرب أنّ الرَّقِيب من أَسماءِ اللهّ تعالى وهو الحافظُ الذي لا يَغيبُ عنه شيءٌ فَعِيلٌ بمعنى فاعل[٥١]، ويبدو أن فعيل هذه صيغة تحمل دلالتين صرفيتين إحداهما المبالغة من فاعل (راقب أو مراقب) والأخرى الثبوت الذي تحققه الصفة المشبهة وقد ذكر الطباطبائي أن «الرقيب الحفيظ و المراقبة المحافظة»[٥٢]، وقيل الرقيب هو المراقب الذي يحفظ عليك أفعالك جميعا[٥٣]، وقال صاحب تفسير الأمثل: «والرقيب أصله من الترقب، وهو الانتظار من مكان مرتفع، ثمّ استعمل بمعنى الحافظ والحارس، لأن الحراسة من لوازم الترقب والنظارة»[٥٤]، وأضاف: «وارتفاع مكان الرقيب قد يكون من الناحية الظاهرية بكون

(٤٨) مفردات غريب القرآن، الراغب الأصفهاني ١/ ٣٨.
(٤٩) ينظر: مجمع البيان: الطبرسي، ٣/ ٥.
(٥٠) ينظر: زاد المسير: ابن الجوزي، ١/ ٤٨٤.
(٥١) ينظر: لسان العرب: ابن منظور، ١/ ٤٢٤، تاج العروس: الزبيدي، ١/ ٥٣١.
(٥٢) الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي، ٤/ ١٣٦.
(٥٣) ينظر: مفاتيح الغيب: الرازي، ٥/ ٤٠.
(٥٤) تفسير الأمثل: مكارم الشيرازي ٣/ ٨٢.

الرقيب يرقب على مكان مرتفع، ويمارس النظارة من ذلك الموقع، وقد يكون من الناحية المعنوية»[٥٥]، فيكون المعنى أنّ الله يحصي عليكم نياتكم وأعمالكم، ويعلم بها ويراها جميعاً، كما أنه هو الذي يحفظكم أمام الحوادث، ويبدو أن وجود كلمة (على) في جملة النص تعضد القول بأن الترقب من مكان مرتفع.

والخلاصة أن (رقيب) فعيل يراد به تعظيم معنى الرقابة واستمرارها زمانيا وثبوتها لله كون صفاته مطلقة، وإنما اختار النص هذه الصفة دون صفة عليم أو ما قاربها دلاليا لأنها تدل على الثانية وزيادة كما تقدم، وهذه الزيادة هي التي قصد البحث إظهارها ليتضح الترابط الدلالي بين جمل النص بما أنتج خطابا متكاملا هو غاية في النضج والاكتمال، فمن هذا الافتتاح القوي للسورة والخطاب الشامل والأسلوب الرائع في الأمر بالتقوى واستحقاقه بموجب الحقائق الكونية والوجودية، ووجود الخالق الحافظ الرقيب للأفعال وتأسيسا على كل هذا يؤسس النص القرآني الأساس الرصين لوضع لبنات بناء المجتمع الإسلامي السليم والرصين، يقول سيد قطب: «من هذا الافتتاح القوي المؤثر، ومن هذه الحقائق الفطرية البسيطة، ومن هذا الأصل الأساسي الكبير، يأخذ في إقامة الأسس التي ينهض عليها نظام المجتمع وحياته: من التكافل في الأسرة والجماعة، والرعاية لحقوق الضعاف فيها، والصيانة لحق المرأة وكرامتها، والمحافظة على أموال الجماعة في عمومها، وتوزيع الميراث على الورثة بنظام يكفل العدل للأفراد والصلاح للمجتمع..

ويبدأ فيأمر الأوصياء على اليتامى أن يردوا لهم أموالهم كاملة سالمة متى بلغوا سن الرشد. وألا ينكحوا القاصرات اللواتي تحت وصايتهم طمعاً في أموالهن. أما السفهاء الذين يُخْشَى من إتلافهم للمال، إذا هم تسلموه، فلا يعطى لهم المال، لأنه في حقيقته مال الجماعة،

(٥٥) المصدر نفسه.

ولها فيه قيام ومصلحة، فلا يجوز أن تسلمه لمن يفسد فيه، وأن يراعوا العدل والمعروف في عشرتهم للنساء عامة»[٥٦].

المبحث الثاني: (الأفعال):

وردت أفعال في الآية المباركة سيحاول البحث دراستها بالمنهجية نفسها التي مرت في المبحث الأول لبيان حكمة التعبير بها، فأول هذه الأفعال (اتقوا)، وبعده الفعل (خلق)، (بثّ)، (تساءلون)، (كان).

(اتقوا): تكرر الفعل مرتين في هذه الآية المباركة، وبصيغة واحدة وهي الأمر، فلماذا اختار النص هذا الفعل من هذه المادة ولماذا جاء بصيغة الأمر ولمرتين في الآية؟، وعند النظر في المعجم العربي نجد أن المعنى اللغوي لهذه المادة قد أتى بمعنى الصيانة والوقاية، فالتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف واعتمادها صيانة للنفس[٥٧]، ولكن معنى التقوى قد أخذ دلالة أوسع من دلالتها اللغوية، فقد صار التقوى في تعارف أهل الشرع حفظ النفس عما يؤثم، وذلك بترك المحظور[٥٨]، ويجمع الجرجاني معاني التقوى واستعمالاتها بقوله: «في اللغة: بمعنى الاتقاء، وهو اتخاذ الوقاية، وعند أهل الحقيقة: هو الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك، والتقوى في الطاعة: يراد بها الإخلاص، وفي المعصية: يراد بها الترك والحذر، وقيل: أن يتقي العبد ما سوى الله تعالى، وقيل: المحافظة على آداب الشريعة، وقيل: مجانبة كل ما يبعدك عن الله تعالى، وقيل: ترك حظوظ النفس ومباينة النهى، وقيل: ألا ترى نفسك خيراً من أحد، وقيل: ترك ما دون الله، والمتبع عندهم، هو الذي اتقي متابعة الهوى، وقيل: الاهتداء بالنبيﷺ قولاً وفعلاً»[٥٩].

وقد نسب لأمير المؤمنين علي بن

(٥٦) في ظلال القرآن: سيد قطب، ٢/ ٤١.
(٥٧) لسان العرب: ابن منظور، ١٥/ ٤٠١ مادة (وقى).
(٥٨) ينظر: مفردات غريب القرآن: الراغب، ١/ ٥٣٠، ٥٣١.
(٥٩) التعريفات: الجرجاني ١/ ٢١.

أبي طالب عليه السلام تعريف التقوى عندما سئل عنها فقال: «التقوى الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والقناعة من الدنيا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل»[٦٠]، وبالرغم من التوسع الحاصل في استعمال اللفظة بهذه المعاني فإن الباحث يرى أن اللفظة -أساسا- تملك هذه الطاقة التعبيرية وقد فجرها الاستعمال القرآني في هذا الموضع، ومن هنا يتضح سبب إيثار النص هذه المادة دون سواها من المواد اللغوية قريبة الدلالة مثل لفظة الطاعة (أطيعوا) بأن يرد الأمر بها مثلا، أو الإلزام (ألزمكم) أو غيرها.

الذي يظهر لمتتبع الاستعمال القرآني أنه في الغالب يؤثر هذه اللفظة في باب الإلزام والطاعة رغبة ورهبة، وقد تكررت هذه المادة أكثر من مائة مرة في القرآن وفي بعض الآيات أكثر من مرة كما في الآية موضوع البحث، ما يؤكد أن دلالتها المارة أكثر انطباقا وملاءمة مع غايات النص، فلا بد من لفظة تجمع بين الإلزام والطاعة، والأمر والنهي، والتوقع والترقب لأمره، والحفاظ والصيانة للنفس بإيمان ووثوق كون المأمور باتباعه أو تركه يصب في صالح الإنسان وهو ما لا تحققه أية مادة أخرى في هذا الموضع، لأن كل فرد له أثر مهم في المجتمع، وليس لبناء المجتمع أن يكون من دون الالتزام والطاعة بقناعة والخشية والخوف برغبة.

ولهذه الدلالة تكررت المادة مرتين لأهمية هذه اللفظة في غرض السورة الذي نوهنا عنه في ما تقدم وقد استعمل النص صيغة الأمر (افعل)، دون غيرها من صيغ الأمر المعروفة في العربية، لما لها من طاقة تعبيرية تختلف عن غيرها من صيغ الأمر فهي إحدى صيغ الأمر، ولا تكون إلاّ للمخاطب كقوله تعالى ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [سورة هود: ١١٢]، وهي صيغة تشتق على غرار (افعل) للدلالة على طلب الحدث الذي تشتق منه هذه الصيغة، أما صيغة المضارع المسبوق بـ

(٦٠)

(لام الأمر) فإنها تستعمل للغائب في الغالب، وان دخولها على فعل المتكلم قليل، نحو قول القائل: (قُمْ ولأقم معك) وإن الأقل منه دخولها على فعل المخاطب[٦١]. ولهذا تكون صيغة أفعل الأنسب من صيغة لتفعل في النص كونه خطابا للناس.

أما اسم الفعل فهو دال على الأمر نيابة عن الفعل، إلاّ أن دلالته تختلف في الأمر عن الفعل نفسه، يقول الدكتور مهدي المخزومي: «إن هذا البناء: (فعال) طلب كـ (افعل) يدل على طلب إحداث الفعل فوراً، كما يدل عليه (افعل)، وانه يدل من صيغة الفعل الساكن الأول الذي تزاد في أوله همزة وصل»[٦٢]. فبهذا تكون دلالة اسم الفعل لا تتناسب مع الخطاب القرآني الذي يؤسس لأمر لا يراد به الفور بل الالتزام والاجتناب.

(٦١) ينظر المرتجل: ٢١٥، ومعترك الاقران: ٢/ ٢٤١.

(٦٢) في النحو العربي نقد وتوجيه: ٢٠٦ و ينظر في النحو العربي –قواعد وتطبيق: ٢٣ –٢٥.

أما استعمال صيغة المصدر فقد يكون المصدر بدلا من لفظ الفعل، ويقع في موضعه ويقوم مقامه وينوب عنه، وإن إقامة المصدر مقام الفعل فيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد (على أن في التوكيد كلاما بين النحويين)[٦٣]، كونه ينوب مناب الفعل، لكنه لا يعطي قوة الفعل، فبساطة ليس للبديل قوة الأصيل إذا صح القول.

الفعل (خلق): الذي تكرر مرتين في الآية المباركة، ولم أجد في حدود اطلاعي في كتب التفسير من يقف عند هذا الفعل ودلالته، وإنما هناك مرور عابر لا يكشف دلالة الفعل التي ينماز بها من غيره من دلالات الأفعال، والذي يبدو لي أن الدرس التفسيري كان وما يزال بحاجة إلى أن يكون من ضمن منهجه في التفسير الاستفاضة في البحث اللغوي، بالرغم من وجود التفاسير التي تعنى بالجانب اللغوي، إلا أن المزيد مطلوب حتما.

إن الرجوع إلى المعجم اللغوي

(٦٣) ينظر: شرح ابن عقيل ٢..

أمر ضروري في كشف دلالة المفردة واستعمالها اللغوي وظلال المفردة، فقد يفتق المعجم في أذهاننا كثيرا من الدلالات التي تتعلق بالمفردة كونها مادة تعبيرية ذات طاقة تنتظر من يستغلها الاستغلال الأفضل، فالفعل (خلق) يدل في المعجم على ابتداع الشيء على مثال لم يسبق إليه، والأصل في الخلق التقدير فهو باعتبار تقدير ما منه وجُودُها وبالاعتبار للإيجاد على وَفْق التقدير خالق، وقال أَبو بكر بن الأنباري الخلق في كلام العرب على وجهين أَحدهما الإِنْشاء على مثال أَبْدعَه والآخر التقدير[٦٤]، ويجعل الزمخشري من المجاز استعمال الخلق بمعنى الإيجاد على تقدير أوجبته الحكمة[٦٥]، والذي يبدو للباحث في هدي ما تقدم أن الخلق لفظ يراد به إيجاد الشيء وابتداعه على مثال والآخر التقدير، كما مر، وما دامت الدلالة المفردة على هذين الشقين فلم لا يكون مرادها في النص الأمرين معا؟. وهو ما لا ينقضه شيء، وينطبق مع مراد النص العام الذي يريد أن يبين للناس حقيقتهم وأن الله قد أوجدهم وخلقهم فلا بد من طاعته وتقواه. إذن هذه أول خصوصية لمفردة خلق من غيرها، الأمر الآخر الذي يلمحه أن دلالة الخلق تشير إلى أن المفعول لهذا الفعل كان قبل ذلك شيئا آخر وليس عدما[٦٦]، فالإنسان كان طينا من قبل ولم يأت من عدم لذلك لا تناسب هذا المعنى لا دلالة الفعل أنشأ و لا أبدع و لا أوجد ولا فطر، لأن لكل منها دلالة تختلف عن دلالة الفعل خلق. والواضح أن النص استعملها ليشير إلى حقيقة وجود الإنسان وكيفية وجوده، والذي يثار في هذا السؤال الآتي: لَمَ خلق الإنسان ولم ينوجد أو يبتدع؟. وان كان السؤال في بدايته لا علاقة له باللغة إلا أنني أؤمن أن اللغة فكر بل هي مادته ومظهره، فلو استنطقنا المادة للفعل خلق ووضعناها مع دلالة النص

(٦٤) ينظر: لسان العرب: ابن منظور ١٠/ ٨٥ مادة (خلق).

(٦٥) ينظر: أساس البلاغة: الزمخشري، ١/ ٢٢، مادة (خلق).

(٦٦) ينظر: التعريفات: الجرجاني، ٣٣.

كلا، ونظرنا إلى الصورة كاملة لعلمنا أن حقيقة الإنسان وأصله تدعوانه أن لا يتعالى أو يتكبر فهو من هذا التراب، ثم أي إمكانية هذه التي صيرته إنسانا، ولابد من الإشارة إلى أن الإنسان في مراحله كافة هو في تحول وتبدل فهو من نطفة إلى مضغة إلى علقة... ،. وهذا ما لا تحققه دلالة أي فعل آخر.

روى صاحب الكشاف أنه قرئ ((وَخَالقٌ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا)) بلفظ اسم الفاعل، وهو خبر مبتدأ محذوف تقديره هو خالق[٦٧]. والذي يدحض هذه القراءة من الجانب اللغوي أن اسم الفاعل هنا جاء عاملا عمل فعله بدليل أنه نصب المفعول (زوج)، وهذا يدل على أنه عامل والعامل دلالته الزمنية على الحال والاستقبال كما هو معلوم، وهنا من غير المناسب استعمال كلمة بدلالة زمنية لا تشير إلى الماضي الذي هو محور الزمن في هذا الموطن.

وقد تكرر الفعل في الآية المباركة مرتين ولم يكتف بعطف المفعولين كما في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾، وعلة ذلك إظهار ما بين الخلقين من التفاوت، فإن الأولَ بطريق التفريعِ من الأصل والثاني بطريق الإنشاءِ من المادة[٦٨].

الفعل (بثّ): البث في اللغة يدل على النشر (التفريق) والتكثير[٦٩] وقيل هو التفريق بالإثارة ونحوها[٧٠]، وقيل التفريق وإثارة الشيء كبث الريح التراب، وبث النفس ما انطوت عليه من الغم والسر، يقال بثثته فانبث، ومنه قوله عز وجل: ﴿ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ [سورة الواقعة: ٦]، وقوله عز وجل: ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٤] إشارة إلى إيجاده تعالى ما لم يكن موجودا وإظهاره إياه[٧١]. فيفهم

(٦٧) ينظر: الكشاف: الزمخشري ١/ ٣٦٩.

(٦٨) ينظر: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود، ٢/ ٢٧.

(٦٩) ينظر: التعريفات: الجرجاني، ٣٣.

(٧٠) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي ٤/ ١٣٧.

(٧١) ينظر: مفردات غريب القرآن: الراغب الأصفهاني ٣٧.

من الفعل في النص أن الله بثكم أيها الناس منهما بواسطة أو غير واسطة[٧٢].

وهنا نجد أن أمر انتشار المجتمعات كان من الغرائز الفطرية التي أوجدت تعدد المجتمعات اليوم واختلافها لما في ذلك من مصالح قد تكون بينة أو غير بينة.

الفعل (تساءلون): ذهب المفسرون إلى أن الفعل مخفف من تتساءلون فحذفت إحدى التاءين وبقيت تاء المضارعة وعُلل سبب التخفيف بأنهم إنما حذفوها لاستثقالهم إياها في اللفظ، كما قرئ تسّاءلون إذ أدغمت التاء في السين لاجتماعهما في أنهما من حروف طرف اللسان و أصول الثنايا و اجتماعهما في الهمس فخفف هنا بالإدغام كما خفف هناك بالحذف، ولكون الكلام غير ملتبس، وقرأ أهل الكوفة تسألون بتخفيف السين و الباقون بتشديدها[٧٣]، ومن خفف حذف تاء تتفاعلون لاجتماع حروف متقاربة، فأعلها بالحذف كما أعلها الأولون بالإدغام، وذلك لأن الحروف المتقاربة إذا اجتمعت خففت تارة بالحذف وأخرى بالإدغام[٧٤].

وذهب المفسرون إلى أن المراد بالتساؤل سؤال بعض الناس بعضا بالله، يقول أحدهم لصاحبه: أسألك بالله أن تفعل كذا و كذا، وهو قسم به تعالى وهو ومعناه تَطْلُبون حقوقَكم به، و التساؤل بالله كناية عن كونه تعالى معظّما عندهم محبوبا لديهم فإن الإنسان إنما يقسم بشيء يعظمه و يحبه[٧٥]، وقيل معنى تتساءلون تتعاهدون باسمه، وتتعاقدون باسمه، ويسأل بعضكم بعضاً الوفاء باسمه، ويحلف بعضكم لبعض باسمه[٧٦].

وقد استعمل القرآن هذه المادة (سأل) بصيغة (تفاعل) وهي صيغة مزيدة بحرفين التاء والألف، ولها

(٧٢) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي ٤/ ١٣٧.
(٧٣) ينظر: التبيان: الطوسي ٣/ ٩٧، ومجمع البيان: الطبرسي ٣/ ٣.
(٧٤) ينظر: مفاتيح الغيب: الرازي ٥/ ٣٦.
(٧٥) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: الطباطبائي ٤/ ١٣٧.
(٧٦) ينظر: في ظلال القرآن: سيد قطب ٢/ ٤١.

معان منها المشاركة والتكلف والتدرج والتكرار[٧٧]، ومعنى التكرار هو تعدد الحدث مرارا لا على سبيل الحصر، وهذا المعنى إنما يكون إذا كان (تفاعل) من جانب واحد فيكون على وجه الكثرة لا الحصر، وهو ما ينطبق ودلالة النص والمعنى المراد منه، وفي هذه الصيغة ما يلفت النظر إلى أن القرآن يشير هنا إلى الطبائع الموجودة عند الناس في أنهم مطبوعون على مساءلة الله في أمور حياتهم اليومية ما داموا، وهنا مثال آخر على دقة النص في الاستعمال المحكم للفظ.

(كان): فعل ماض ناقص كما هو معلوم إذا دلت على الزمان فقط، والنقص حاصل في أنها دالة على الزمان دون الحدث عند أغلب النحاة، أما إذا دلت على حدوث الشيء ووقوعه فهي تستغني عن الخبر تقول كان الأمر وأنا أعرفه مذ كان أي مذ خُلقَ[٧٨]، كما تأتي زائدة وهو أمر معروف.

بيد أن ابن بري يقول في أنواعها «تكون بمعنى مَضىَ وتَقَضىَّ وهي التامة وتأْتي بمعنى اتصال الزمان من غير انقطاع وهي الناقصة ويعبر عنها بالزائدة أَيضاً وتأْتي زائدة وتأَتي بمعنى يكون في المستقبل من الزمان وتكون بمعنى الحدوث والوقوع»[٧٩]. ويبدو أن تقسيمات ابن بري تشير إلى معاني كان لكون النوع الثاني إنما يذكره اللغويون من معاني كان الناسخة، فالزيادة المعنية-بحسب استقرائي -زيادتها في عدم نصها على الزمن الماضي وإنما يراد بها الإخبار فحسب هذا ما يستشف من الأمثلة التي يضعها الجوهري في حديثه عن كان إذ يمثل بقوله تعالى ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [سورة النساء: ٩٦]

وبقول أبي جندب الهذلي:

وكنتُ إذ جاري دعا لَمَضُوفةٍ
أُشَمِّرُ حتى يَنْصُفَ الساقَ مِئْزَري

يقول الجوهري: «وإنما يخبر عن حاله وليس يخبر بـ (كنت) عماَّ مضى من

(٧٧) ينظر: المهذب في علم التصريف: هاشم طه شلاش وآخرون، ٩٧.

(٧٨) ينظر: لسان العرب: ابن منظور ١٣ ٣٦٣ مادة (كون).

(٧٩) ينظر: المصدر نفسه والمادة نفسها.

فعله»[٨٠].

من هنا نعلم أن كان ذلك الفعل الماضي الناقص يدل على معان منها اتصاف الخبر في زمن الماضي، وتأتي بمعنى اتصال الزمان من غير انقطاع، وتأَتي بمعنى يكون في المستقبل من الزمان، وتأتي بمعنى صار، وهنا القرآن يستعملها بما اعتاد العرب على استعماله، فهي يراد بها اتصال الزمان من غير انقطاع وتبدل لصفات الله سبحانه وتعالى فهو سبحانه يريد الإخبار عن حاله وصفاته، ولكن إذا كان كذلك فلماذا لم يقتصر الخطاب على الإخبار بنفسه دون كان؟. أو جاء بالمصدر من دون الزمن؟. والذي يبدو للباحث أن النص أراد الزمن مع الإخبار وإلا فلم جاء بها؟. وأن الماضي مقصود ابتداء ليراد من خلاله الاستمرار؛ بما يحكم به العقل والسياق و الاستعمال اللغوي عند العرب، فضلا عن معنى التوكيد في الإخبار الذي يضفيه وجود كان، فاستغلال النص لطاقة الفعل كان منسجما مع مراده في كونه رقيبا على العباد، في الأوقات جميعا، جلت قدرته.

(٨٠) ينظر: المصدر نفسه والمادة نفسها.

المبحث الثالث: الحروف:

وليست الحروف ببعيدة عن الدقة المتناهية في الاستعمال القرآني للمفردة، فالتتبع العملي لهذه المفردة يثبت أن هناك استعمالا بيانيا راقيا لهذه الحروف مظهره الدلالة اللغوية العميقة والدقيقة التي تجسدت في اختيار الحروف المنطبقة مع المعاني التي قصدها النص لتكتمل اللوحة البيانية مصورة روعة التعبير وجمال صياغته. والحروف التي نتحدث عنها ي هذه الآية هي: (يا، ال، من، الباء).

(يا) حرف نداء، وهو أكثر الحروف استعمالا، فقيل (يا) أم الباب، وهو موضوع لنداء البعيد حقيقة آو حكما ؛ كون الألف فيها يسمح بمد الصوت بحسب ما يريد المتكلم، وينادى بها القريب؛ توكيدا وزيادة في الانتباه[٨١]،

(٨١) ينظر: الكتاب، ٢/ ٢٢٦ -٢٣٣، مغني اللبيب ٤٨٨، وينظر معاني الحروف الثنائية والثلاثية ٢٥٨.

وأضاف الزمخشري غاية للنداء بـ (يا)، ففضلا على التأكيد تفيدنا معنى العناية بها بعد النداء؛ يقول: «فإذا نودي به القريب المُفاطِن فذلك للتأكيد المؤذِن بان الخطاب الذي يتلوه معنيّ به جدا»[٨٢]. فلأهمية الخطاب للمنادى يؤتى بها زيادة في شدّ الانتباه.

النحاة رأوا أن النداء أسلوب من أساليب الطلب عند العرب، يراد به تنبيه المنادى وإقباله عليك لتخاطبه بما تريد، وهو ليس إخبارا ولا استخبارا ولا أمرا ولا نهيا ولا عرضا ولا تمنيا[٨٣]، وهنا نجد أن النص قد استعمل أداة النداء (يا) وأراد بها نداء الناس من كان قريبا ومن كان بعيدا سواء بالقرب المادي ام المعنوي الزماني والمكاني، ليناسب هذا الاستعمال مراد النص في إخبارهم بحقيقتهم وحقيقة الخلق وكيفيته ؛ ليؤسس إلى رسم معالم الحياة التي لابد أن يعيشها الإنسان من خلال وضع القوانين والضوابط للحياة الطيبة الكريمة.

(أل): في العربية أنواع لأل منها العهدية ومنها الجنسية ومنها الزائدة وغير ذلك، وقطعا (أل) في هذه الآية جنسية في قوله (الناس) و (الأرحام)، فهي تدخل على الجنس ولا يراد بها واحد معين من أفراد الجنس، بل الجنس كله.

وقد قسم اللغويون أل الجنسية على قسمين منها ما هو للاستغراق، ومنها ما هو لتعريف الحقيقة، وأمثلة ذلك كثيرة في كتب النحو جميعا[٨٤]، ولكن بعضهم ذهبوا إلى أن (أل) في جميع أحوالها لتعريف العهد ويقسم المعهود إلى معهود شخص ومعهود جنس، وحجتهم في الثاني أن الأجناس أمور معهودة في الأذهان معلومة للمخاطبين[٨٥]. وهذا القول ما يميل إليه الباحث لان أل الجنسية وان كانت يراد بها استغراق الجنس أو الحقيقة

(٨٢) الكشاف، ١/ ٢٢٤.
(٨٣) ينظر: معاني الحروف الثنائية والثلاثية، ٢٦١.
(٨٤) ينظر: معاني النحو، ١/ ١٠٥ -١٠٩.
(٨٥) ينظر: المصدر نفسه ١/ ١٠٩.

فإنها لا تخلو من العهد بأي حال من الأحوال، وهذا ما تسعفنا به هذه الآية محل البحث، لأن الخطاب هنا شامل للناس جميعا ممن هم يجسدون حقيقة الإنسانية فتصدق عليهم لفظة الناس أو من هم في طور السعي إلى هذه الحقيقة ممن يريدون انتشال أنفسهم مما يشين حقيقتهم أو يمسخها، فالخطاب عام للجنس البشري المعهود في الذهن ممن هو إنسان بهذا المعنى المتقدم، فالنص بالرغم من انه استعمل (أل) في هذا المعنى فانه استغل ما يمكن أن تعطيه هذه اللفظة من إمكانية تعبيرية في حضهم على التمسك بتعاليم السماء التي وضعت لصالح الناس.

(من): هذا الحرف من النحاة من قصره على معنى واحد لا يفارقه وهو ابتداء الغاية، ومنهم من عدد معانيه إلى ما يقرب من خمسة عشر معنى، منها التبعيض وبيان الجنس والتعليل والبدل وغيرها[٨٦]. وقد اختلف المفسرون في تحديد مراد النص في هذه الآية باختلاف معنى (من) هنا، وهو معنى يدور بين الجنس والتبعيض، فمن يذهب إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم يشير إلى أن من للتبعيض ومن يقول إنها خلقت من جنسه وهو الطين فيشير إلى معنى الجنس فيها، ويبدو أن هناك أسبابا تدفع المفسر إلى القول بأن المرأة مخلوقة من الإنسان منها الروايات التي ذكرت ذلك ومنها الدلالة اللغوية للفظة المرأة ومنها القبليات التي يضفيها المجتمع على ثقافة المفسر، ولست أريد أن ادحض رأيا أو انتصر له هنا ولكني أردت أن أنبه إلى شيء أجده مهما وقد أهمله المفسرون في هذا الموضع، وهو أن الغاية من ذكر حقيقة خلق الإنسان كما ذكر المفسرون هو إظهار عظمة الخالق ومن هنا يظهر استحقاقه على الناس في ضرورة اتباع تعاليمه وطاعته، فإذا كان الأمر كذلك فهنا توجد إشارة في النص لم يلتفت إليها وهي بديع خلق الإنسان ووجوده بهذه الهيأة الراقية التي جعلته

(٨٦) ينظر: الكتاب، ٢/ ٢٢٤، مغني اللبيب ٤١٩، معاني النحو، ٣/ ٦٥، معاني الحروف الثنائية والثلاثية ٢٣٠.

سيد الموجودات وأكرمها، وهنا نضع معادلة رياضية نستمدها من النص، فكلما بينا بساطة حقيقة الشيء المهم أو المثير أو البديع اتضحت القدرة واتضح عظيم ذاك الشيء أيضا فالتناسب طردي كما يقول أهل الرياضيات، فالنص بالرغم من انه بيّن بساطة أصل الإنسان فإنه أشار بشكل غير مباشر إلى عظمة الإنسان في خلقه ووجوده وصفاته، وإذا اقتنعنا بهذه الحقيقة فإن المعادلة ستكون طردية فكلما بالغنا في تبسيط حقيقة الشيء رفعنا من قيمة وجوده، وفي ما قيل عن المرأة من أنها خلقت من ضلع من أضلاع آدم وما يرد على ذلك من انه ليس بمعجز على الله خلقها من طين أيضا، وما قيل أنها مما فضل من طينة آدم أو غير ذلك من الأقوال مما يفهم النقص للمرأة لا يمكن أن يفهم هكذا، إنما يمكن أن يفهمنا النص عظيم شأن المرأة التي خلقت من آدم بسبب بساطة الشأن الذي خلقت منه، لذاك ما يطرح من روايات في شأن كيفية خلق المرأة مما يمكن أن يفهم فيه النقص، فإنه للمرأة لا عليها وفي ذلك أمران الأول الإشارة إلى أهمية المرأة في المجتمع، والثاني في تعليل تسمية هذه السورة بالنساء.

(**الباء**): للباء معان كثيرة، ذكرها النحاة، ولكن المعنى الرئيس لها هو الإلصاق والاختلاط كما يقول سيبويه، فالمعاني الأخر تحمل هذا المعنى، حقيقة أو مجازا، فمن المعاني التي ذكرت لها الاستعانة والمصاحبة والتعدية والظرفية والبدل والسببية والمجاوزة، وغير هذا[٨٧].

وقد وردت الباء في الآية الأولى من سورة النساء في قوله تعالى ﴿ تَسَآءَلُونَ بِهِۦ ﴾، فما دلالتها وما طاقتها التعبيرية في النص؟، ما يبحثه المفسرون في هذا المقطع من الآية هو قراءة حمزة بجر الأرحام جوازا أو امتناعا، ولم ينصصوا على معنى الباء هنا، وقد يكون وضوح المعنى في أذهانهم سببا في تغاضيهم عن النص على معناها، فهل معنى

(٨٧) ينظر: الكتاب، ٢/ ٣٠٢، مغني اللبيب ٤١٢، معاني النحو، ٣/ ١٧.

الإلصاق ينسجم هنا؟. مع أن النحاة قالوا إن معنى الإلصاق لا يفارقها، نعم هنا يمكن أن يفهم منها الإلصاق لأن الناس يدعون الله ويتساءلون به فكونه سبحانه لصيق سؤالهم، يضاف إلى هذا أن الباء يفهم منها الاستعانة أيضا، ومن خلال الباء أزيحت دلالته من التساؤل عن الشيء إلى التساؤل بالشيء الذي هو قريب من الفعل دعا، يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ :«ضمّن (سأل) معنى (دعا) فعدّي تعديته كأنه قيل دعا بعذاب واقع من قولك: دعا بكذا إذا استدعاه وطلبه»[٨٨]، ولعل هذا المعنى يكشف لنا علة عدم تكرار الباء مع الأرحام.

وقد ذكر العسكري في الفروق أن دلالة السؤال يكون بالفعل والقول، والسؤال يستدعي جوابا إما باللسان أو باليد[٨٩]، ويمكن أن نفهم من هذا أن القرآن يشير إلى معنى آخر غير سؤال الناس ربهم، وهو جواب ربهم لهم، فقد ذكرهم سبحانه وتعالى بفضله السابق في تلبية دعائهم وسؤالهم.

وهكذا من خلال رحلتنا الوجيزة مع كلمات النص القرآني شهدنا فيها روعة الاستعمال القرآني ودقته المتناهية التي كلما شعرنا أننا اكتشفنا أعمق دلالاتها بان لنا أن هناك ما هو أعمق منها، حتى ليشعر الباحث أنه في بحر لا يدرك قراره ولا يعرف كله، فيعلم من خلال النص عظمة الله التي صيرت الكلمات مادة دلالية متسعة تتعاظم لتنفلت عن حدود التوقف بما يخلق حركية النص الذي أبقى الأقوال فيه إلى يومنا هذا من دون أن يكون هنالك قول يغني عن الآخر فيه.

الخاتمة:

وبعد ما تقدم رغبت في أن أقول بأن البحث هو محاولة لتطبيق كثير من النظريات اللغوية ومحاكمتها أمام النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومحاولة أخرى لبيان

(٨٨) الكشاف: الزمخشري، ٣/ ٢٦٧.
(٨٩) ينظر: الفروق اللغوية: العسكري، ١/ ٢٨٧.

ما يحتاجه فهم النص القرآني من رجوع وبحث مستمر في الدلالات اللغوية، ويمكنني أن أضع مجموعة من النتائج التي توصل لها البحث:

- إن النص القرآني نص محكم في دلالته اللغوية التي تمكننا من فهم معانيه الدقيقة من خلال استفراغ الوسع في البحث اللغوي ومحاكمة النص لغويا أولا وقبل كل شيء.
- إن كتب التفسير قديما وحديثا لم تهتم في الأغلب بوضع منهجية في تفسير النص القرآني وتحليله، لاسيما أن تظهر المعنى العام للنص ثم تبدأ بتفكيكه مستضيئة بالطاقات اللغوية التي توافرها المفردة القرآنية بعد تضافر القرائن السياقية والعقلية والذوقية وغيرها.
- عزوف بعض المهتمين بشأن النص القرآني من الرجوع إلى المعجمات اللغوية وكتب اللغة التي فيها من مفاتيح فهم النص ما فيها.
- ضرورة استنطاق المساحات المسكوت عنها في النص، أو التي لمح إليها النص من دون تصريح، وكشف غايات ذلك.
- هناك تأسيس في النص القرآني للوصول إلى مبتغاه، وهذا يتضح من خلال كشف الترابط الدقيق بين الآيات القرآنية والجمل بل حتى المفردات.
- الرجوع إلى اللغة في فهم النص يبعد الباحثين عن مجال الخلافات المذهبية والقبلية التي قد تؤثر سلبا في فهم النص، على أنه يمكن أن نستعين بما يحيط بالنص من ظروف وأحداث وبعض ما يتعلق بالنص من بعيد أو قريب ولكن في حدود ما تسعفنا به دلالة النص نفسه.
- استطاع البحث أن يقف على دلالات في النص لم نجد من نص عليها، منها الإشارات إلى احترام التعددية في المجتمعات الإنسانية، ومنها إظهار بعض الإشارات الخفية في تعظيم المرأة في النص موضع البحث، وغيره كثير في ثنايا البحث.

- إن الفهم الدقيق للغة النص يغنينا عن القول ببعض النظريات التي لا حاجة للنص بها فهو محكم ببعضه كما بكله.

وغير هذا كثير يمكن للقارئ العودة إليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العلمين.

أهم المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي، دار احياء التراث العربي، بيروت.
- بيان إعجاز القرآن، حمد بن محمد الخطابي، تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ١٩٦٨ م، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.
- التعبير الفني في القرآن الكريم، الدكتور بكري شيخ أمين، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٤ م.
- التعبير القرآني، الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٨٩ م.
- التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن "بنت الشاطئ"، الطبعة الثانية، دار المعرف بمصر، ١٩٦٦ م.
- درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، محمد عبد الله المعروف بالخطيب البغدادي، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- دقائق الفروق اللغوية في البيان القرآني، الدكتور محمد ياس خضر الدوري، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٦ م.
- الرسالة الشافية في وجوه الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، في ذيل دلائل الإعجاز، طبعة المدني، ١٩٨٤ م.
- زاد المسير، ابن الجوزي، الطبعة الثالثة، بيروت ١٤٠٤.
- علل التعبير القرآني عند السيوطي:

- طه شداد، رسالة دكتوراه، الجامعة المستنصرية، كلية الآداب، ٢٠٠٦.
- علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم، المجمع العلمي لأهل البيت، الطبعة الثالثة.
- علوم القرآن الكريم، الدكتور غانم قدوري حمد، مطابع دار الحكمة، بغداد، ١٩٩٠ م.
- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم للنشر والثقافة، القاهرة.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، الطبعة الخامسة عشر، ١٩٨٨ م.
- في النحو العربي قواعد وتطبيق، الدكتور مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٧ م.
- في النحو العربي نقد وتوجيه، الدكتور مهدي المخزومي، دار الرائد العربي، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٧ م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو الفضل بن الحسن الطبرسي، تحقيق لجنة من العلماء، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٥ م.
- المرتجل، ابن الخشاب، تحقيق علي حيدر، دمشق ١٩٧٢ م.
- معاني الحروف الثنائية والثلاثية بين القرآن الكريم ودواوين شعراء المعلقات السبع، د. رزاق الطيار، دار الرضوان، الطبعة الأولى، عمّان، ٢٠١٢ م.
- معاني النحو، الدكتور فاضل صالح السامرائي، دار احياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الاولى، ٢٠٠٧ م.
- معترك الأقران في إعجاز القران، جلال الدين السيوطي، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الاولى، بيروت، ١٩٨٨ م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، ابن هشام الأنصاري، تحقيق مازن المبارك، ومحمد علي، دار الفكر، الطبعة الخامسة، بيروت، ١٩٧٩ م.